

التظيم العسكري في عصر المولى اسماعيل (إشكالية المصدر)

محمد المهنوي

كلية الآداب — الجديدة

يشكل التاريخ العسكري حقلا معرفيا نموذجيا لتداخل العلوم المهتمة بدراسة الإنسان في علاقاته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وما يترتب عن هذه العلاقات من مؤسسات وذهنيات وتقنيات...⁽¹⁾. وهو ما جعل منه مبحثا شديدا الصعوبة. فالباحث في التاريخ العسكري يصطدم بإشكاليتين رئيسيتين : ترتبط الأولى بشمولية الموضوع وتنوع قضاياها وتداخلها، في حين تعود الثانية إلى وفرة المناهج وقلة المصادر. والنتيجة العملية لذلك تظهر في انعدام الفواصل بين العام والخاص ؛ إذ يستغل الباحث وفرة أدواته المنهجية وشمولية بحثه للاختباء حيناً والقفز أحيانا أخرى عند كل مواجهة مع هزالة المادة العلمية التي توفرها مصادره. والخطر في الأمر أن خسائر هذه المواجهة تزداد فداحة في القضايا المرتبطة بصلب الموضوع⁽²⁾. وبهذا ينتقل التاريخ العسكري من موضوع قائم بذاته إلى أداة فقط لفهم وتفسير سياسة الدولة. وحتى لو قبلنا بهذا، فما هي القيمة العلمية للنتائج التي سنتوصل إليها ونحن نعتمد أداة تفسيرية نجهل تفاصيلها ونعتقد عكس ذلك ؟

(1) Piero Pieri, «Sur les dimensions de l'histoire militaire», *Annales*, 18^e Année, Juillet-Août 1963, pp. 625-638.

(2) لقد كانت لكاتب هذه الأسطر تجربة في الموضوع عندما حاول دراسة تاريخ انتشار السلاح الناري بالمغرب، وتتبع وظائفه في تنظيم الجيش، حيث وجد صعوبة في حصر الموضوع إلى درجة جعلته يقوم بقراءة عامة لتاريخ الدولة السعدية من خلال السلاح الناري. وهكذا غاب السلاح الناري وحضرت وظائفه. انظر :

— محمد المهنوي، *السلاح الناري بمغرب السعديين*، رسالة السلك الثالث 1988 مرقونة بخزانة كلية الآداب بفاس والجديدة.

رغم حضور الحروب والسياسة في التاريخ العسكري، فإن هذا الأخير ليس تاريخاً للحروب ولا تاريخاً للسياسة العامة، بل هو في جوهره تاريخ للتنظيمات العسكرية، وللتطورات التي لحقت بها. فبدون المعرفة الدقيقة للتنظيم العسكري لا يمكن فهم مضمون السياسة العسكرية للدولة، وفي بعض الأحيان مضمون الدولة ذاتها، خصوصاً بالبلدان التي لم تكن قد شهدت بعد ميلاد الدولة — المؤسسة. إن الحضور المتميز للجانب العسكري في تاريخ المغرب لا يحتاج إلى تدليل، وذلك بحكم معطياته الجغرافية والتاريخية. فمازلنا حتى الآن نستحضر العسكري في كل محاولة وضع تحقيق للسلطة المركزية بالمغرب، كما لازلنا نتوقف كثيراً عند بعض الشخصيات التي حكمت المغرب، ونركز على قدرتها في الجمع بين الحنكة السياسية والتنظيم العسكري الملائم⁽³⁾، وشخصية المولى إسماعيل أحسن مثال على ذلك. فقد شكلت مرحلة المولى إسماعيل محطة رئيسية في تاريخ تطور التنظيم العسكري بالمغرب، بل يمكن اعتبارها آخر تجربة مغربية أصيلة في هذا الميدان.

وبحكم الأهمية التي كانت للجانب العسكري في تاريخ المغرب، فقد كان من المفروض نظرياً أن يواكب البحث التاريخي بالمغرب هذه الأهمية. وتتراكم مجموعة من الدراسات في الموضوع ؛ إلا أن الواقع يخالف هذا الطرح بشكل مقلق⁽⁴⁾. ويعود هذا التناقض، من وجهة نظرنا، لمجموعة من العوامل، تأتي إشكالية المصدر في مقدمتها. فمصادرها التقليدية زاخرة بأخبار الحروب، وتكاد تكون بكفاء فيما

(3) إن هذا التحقيق يتخذ أسسه من الواقع، حيث أن أهم التطورات التي كانت تلحق المغرب تمس الجانب السياسي والعسكري أكثر من أي جانب آخر، في حين ظلت وظائف الدولة بسيطة لم تتجاوز ما كانت تتداوله كتب الأحكام السلطانية، وهي وظائف في غالبيتها تركز على الجانب السياسي والعسكري خدمة للوظيف الديني.

(4) حسب علمنا أن البحوث التي اتخذت من التاريخ العسكري موضوعاً لها قليلة جداً. ففيمما يخص الدولة العلوية أنجز بحثان وهما حسب تاريخ الإنجاز :

— لحسن أغزادي، الجيش في عصر المولى إسماعيل، بحث لنيل دبلوم السلك الثالث، لم نطلع عليه مع الأسف ؛ وبهذا لا نعرف عنوانه بالضبط (قدم في بداية السبعينات بإحدى الجامعات الفرنسية).

— ثريا برادة، الجيش المغربي وتطوره في القرن التاسع عشر، رسالة السلك الثالث مرقونة بخزانة كلية الآداب بالرباط.

يخص التنظيم العسكري، ومرة أخرى يكون مثال المولى إسماعيل نموذجيا. فما هي المادة العلمية المتوفرة عن سلطان وطد دعائم الدولة العلوية، وحكم مدة تفوق نصف قرن (1672-1727)، واشتهر بقوته العسكرية، وحنكته التنظيمية ؟

إن المعلومات المقدمة من قبل المصادر التقليدية المعروفة (كتب التاريخ والأوصاف والرحلات) عن المولى إسماعيل مبالغ فيها، كتبها قلة تها به وتجاهله، وكثرة كانت تكرهه وتكن له العدا. ومن سوء الحظ أن المجال العسكري هو الذي اتخذ هؤلاء مطية لمدح السلطان أو لتشويه صورته. فمن هؤلاء الذين كتبوا عن المولى إسماعيل ؟

باستثناء اليفراني، فإن أغلب المؤرخين المغاربة المشهورين الذين كتبوا عن المولى إسماعيل جاؤوا متأخرين⁽⁵⁾، وهو ما يقلل من أهمية معلوماتهم بالرغم من كونها

(5) يمكن الاقتصار على أهمها ؛ منها :

— محمد اليفراني، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، نشر هوداس مكتبة الطالب، الرباط.

— أبو القاسم الزياتي، الترجمان العرب عن دول المشرق والمغرب، نشر هوداس — باريس، 1886م.

— البستان الظريف في دولة أولاد علي الشريف، م.ج.ع.د.، 1577م.

— محمد بن عبد السلام الرباطي، تاريخ الضعيف الرباطي، تحقيق محمد البوزيدي، ج. 1، دار الثقافة/تبقال 1988، وإن كان به بتر عن فترة المولى إسماعيل انطلاقا من عام 1124هـ.

— محمد أكسوس، الجيش العرمم الحماسي في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي، طبعة حجرية.

— محمد بن الطيب القادري، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، 4 أجزاء، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1982-1986.

— أحمد الناصري، الاستقصا، ج. 7، دار الكتاب، البيضاء.

— أحمد بن الحاج، الدر المنتخب المستحسن في بعض مآثر أمير المؤمنين مولانا الحسن، من عدة أجزاء. مخطوط.

اقتصرننا على هذه العناوين لكونها أهم ما اطلع عليه الأجانب عند كتابة تاريخ المغرب في عصر المولى إسماعيل وبعده. وللمزيد من المعلومات، انظر : محمد المنوني، المصادر العربية لتاريخ المغرب، جزآن، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط.

— عبد السلام بن سودة، دليل مؤرخ المغرب الأقصى، جزآن، دار الكتاب، البيضاء، 1965.

أغزر من تلك التي قدمها اليفراني. فقد اكتفى هذا الأخير في خاتمة نزهته بالإشارة إلى محاسن دولة المولى إسماعيل، وعدد بعض انتصاراته العسكرية⁽⁶⁾. وتزداد خيبة الأمل في اليفراني بعد قراءة الكتاب الذي خصّصه للتعريف بالمولى إسماعيل⁽⁷⁾، حيث لم يتجاوز الإطراء، ولم يشر نهائيا للتنظيم العسكري للإسماعيلي⁽⁸⁾. إن غياب مؤرخين مغاربة في مستوى الحدث ترك الباب مفتحا على مصراعيه أمام المؤرخين اللاحقين لتضخيم تاريخ المولى إسماعيل، والتفخ فيه، وخصوصا في جانبه العسكري. وبلغت بهم المبالغة إلى حد الترويج لأخبار عسكرية خيالية، مثل تحرير المولى إسماعيل لمدينة أصيلا، ومهاجمة جنوده لبلاد السودان⁽⁹⁾. ويبدو أن الزباني، وهو يقدم أرقامه حول جيش البخاري ويعدد قصباته، شعر بهذه المبالغة، فحاول على غير عادته طمأنة القاريء بالإشارة إلى أنه استقى معلوماته من مصادر موثوق بها⁽¹⁰⁾.

(6) اليفراني، النزهة، ص.ص. 304 — 309.

(7) محمد اليفراني، روضة التعريف بمفاخرة مولانا إسماعيل بن الشريف، المطبعة الملكية، الرباط، 1962.

(8) الإشارة الوحيدة يتكلم فيها عن 150.000 جنديا كمجموع جيش البخاري. انظر اليفراني، روضة التعريف، ص. 62. وعليه، فقد كان ليفي بروفنسال على صواب عندما عد اليفراني ضمن مؤرخي الدولة السعيدية : فاهمية اليفراني تأتي من المادة العلمية التي يقدمها عن تاريخ السعديين وليس العلويين. انظر :

ليفي بروفنسال، مؤرخو الشرفاء، ترجمة عبد القادر الخلافي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1977، ص.ص. 89-96.

(9) تقدم مصادرها أرقاما فضفاضة عن عدد القتلى وأعداد الجيوش، سواء أثناء مواجهة المولى إسماعيل لقبائل الأطلس، أو عند جهاد المغاربة ضد النصارى في الثغور المحتلة. وبخصوص هذه الأخيرة تتكلم غالبية مصادرها عن تحرير المولى إسماعيل لمدينة أصيلا بشكل مشابه للطريقة التي حرر بها العرائش، في حين نعرف أن أصيلا لم تكن محتلة؛ إذ أخلتها الجيوش الإسبانية منذ عام 1589 بعد أن كانت قد احتلت إثر الهجوم البرتغالي على المغرب بقيادة دُون سيستيان. كما نعلم أن أصيلا كانت منطلقا للحركة الجهادية التي كان يرأسها الخضر غيلان بالشمال قبل المولى إسماعيل. كما أشاعت مصادرها معلومات حول وصول جند المولى إسماعيل إلى السودان الغربي والقيام بحملات عسكرية هنالك، وهي معلومات يصعب التأكد من صحتها.

(10) فقال : «وقفت عليه في تاريخ الحميدي وفي دفتر سليمان الزرهوني كاتب مولانا إسماعيل رحمه الله وتواتر الخبر به». الزباني الترجمان، ص. 16.

لقد أسهم تلكؤ المصادر المغربية التقليدية، واهتزاز مصداقية ما تقدمه في إعطاء أهمية قصوى للمصادر الأجنبية. وإذا كنا لا نقلل من أهمية هذه الأخيرة في كتابة تاريخ المغرب، زمن المولى إسماعيل، فإننا نود أن نؤكد على خطورة اعتمادها كمنطلقات أساسية في الموضوع، وخاصة في ميدان السياسة العسكرية، لكونها تعج بالأخطاء وأحكام القيمة والمبالغات. فكتاب هذه المصادر يجتمعون حول مبدأ أساسي وهو كراهية المولى إسماعيل، فهم إما كانوا ضمن الأسرى المسيحيين⁽¹¹⁾، أو رهبان جاؤوا للمغرب في مهمة افتكاك هؤلاء الأسرى⁽¹²⁾، أو سفراء زاروا المغرب قصد توقيع اتفاقيات سلم وافتكاك أسرى بلدانهم⁽¹³⁾، أو مرافقين لهؤلاء السفراء⁽¹⁴⁾، أو قناصل⁽¹⁵⁾. وكانت هذه المؤلفات تتم في شكل تقارير وروايات

(11) مويط (ج)، رحلة الأسير، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، مركز الدراسات والبحوث العلوية، الرباط، 1990.

- Mouette, G., *Histoire de Moulay Archy et de Moulay Semein son frère Roys de Fez de Tafilet et du Maroc. m. S.I.H.M. dynastie Filalienne*. France, T. II, pp. 1-199.
- Chantal de la Veronne, *Vie de Moulay Ismail, Roi de Fès et du Maroc d'après Joseph de Léon : 1708-1728*, Geuthner, Paris, 1974.
- Magali Morsy, *La Relation de Thomas Pellow, une lecture du Maroc au XVIII^e siècle*, Paris, 1983.
- Brooks, *Navigation faite en Barbarie*, traduit de l'anglais, Utrecht, 1737.

(12) مثل :

- Père Nolasque Néant, *Relation des voyages au Maroc des rédempteurs de la Merci en 1704, 1707 et 1712*. in. S.I.H.M. 2^e Série France, T. VI, pp. 613-812.
- Père Dominique Busnot, *Histoire du règne de Moulay Ismail, Roy du Maroc, Fez, Tafilet. Souz*, Rouen, 1714.
- Père San Juan Del Puerto, *Mission Historial de Marruecos*, Séville, 1708.

(13) مثل :

- Saint-Amant, F., *Voyage de Monsieur le Baron de Saint-Amant...*, Lyon, 1698 ; reproduit dans S.I.H.M. 2^e série, France, T.II, pp.312-338.
- Saint-Olan, *Estat present de l'empire de Maroc*, Paris 1694.

(14) مثل :

- Simon Ockley, *An account of South-West Barbary containing what is Most Remarkable in the Territories of the King of Fez and Morocco*, London, 1713.
- Maurice de Mirault, *Relation de ce qui s'est passé dans le royaume de Maroc depuis l'année 1727, jusqu'en 1737*, Paris, 1742.
- John Windus, *A Journey to Mequinez. The Residence of the Present Emperor of Fez and Morocco*, London, 1725.

(des relations) تخاطب عاطفة الأوروبي قصد إثارتها إنسانيا ودينيا. فقد افتح مويط كتابه عن رحلة الأسر قائلا : «ولو لم يكن لعملي المتواضع إلا أن يستنهض همم المسيحيين ليرحموا الأسرى والمساكين الذين سأحاول تشخيص آلامهم، فإنني اعتبر نفسي قد كوفت أحسن مكافأة إن استطعت إقناعهم بأن صدقاتهم لن تصرف في أحسن من افتكاك الأسرى. إن مصائب هؤلاء البؤساء والقساوة التي يعاملون بها دائما من طرف أولئك البرابرة جعلهم لا يترددون في محاولة اتخاذ كل وسيلة والتعرض لجميع الأخطار من أجل الخلاص من أيدي سادتهم القساة»⁽¹⁶⁾. وهكذا، فبقدر ما تهول الأحوال والظروف داخل المغرب تكون إمكانيات الحصول على الصدقات أوفر. فالغرض من هذه الكتابات هو جلب أنظار المسيحيين لتفهم الحالة المزرية التي يعيشها إخوانهم في الدين. ولهذا لم يود الأب نولسك أن ينهي كتابه دون أن يقدم نصحا للقارئ طالبا منه «ضرورة اسهامه بواسطة الصدقة في عمل تقي وكثير الحسنات مثل افتكاك الأسرى»، ثم أضاف قائلا : «أعتقد أن قراءة هذه الرواية (الكتاب) كافية لإثارة القارئ وإقناعه بهذه الضرورة لأنها تقربه من آلام ومشاق إخوانه المسيحيين المساكين، عبيد أمير «طاغية» مثل مولاي إسماعيل ملك المغرب»⁽¹⁷⁾.

وهكذا، فمن أجل كسب عطف الرأي العام المسيحي، قدمت غالبية هذه المصادر صورة سوداوية عن المغرب. فقد تحدث مويط في كتابه الخاص بتاريخ المولى إسماعيل، عن الجيش المغربي، من حيث عدده وعدته وحروبه، ولكنه لم يشر إلى تنظيمه؛ إذ ركز فقط على المعاملة القاسية التي كان يعامل بها المولى إسماعيل عناصر جيش البخاري⁽¹⁸⁾. ولم يهتم السفير الفرنسي (Saint-Amans)،

— Braith Waite, *the History of the Revolutions in the Empire of Morocco upon the Death of the Late Emperor Mulay Ishmael*, London, 1729, trad. française Amsterdam 1731.

(15) مثل التقارير والمراسلات العديدة التي كتبها J.B. Estelle القنصل الفرنسي بالمغرب، وهي منشورة ضمن المجلدات التي تحتوي عليها السلسلة الثانية من المصادر الدفينة في تاريخ المغرب (S.I.H.M.) الخاصة بفرنسا.

(16) مويط، المصدر السابق، ص. 12.

(17) Père Nolasque, *op. cit.*, p. 812.

(18) Mouette, *op. cit.*, pp. 159-175.

وهو يشاهد معسكر المولى إسماعيل بجبال الأطلس الكبير سنة 1682، إلا بشخصية السلطان، وبكيفية امتطائه للفرس واللعب فوقه⁽¹⁹⁾. وركزت مذكرات «إسطل» القنصل الفرنسي بسلا على تنكيل المولى إسماعيل برعاياه، وتنفيذ حكم الاعدام بنفسه في عبيده⁽²⁰⁾.

مع العلم أن هذا القنصل اتهم من قبل المولى إسماعيل بالتجسس على المغرب، وساءت العلاقات بين القنصل والسلطان⁽²¹⁾. وقد كان المولى إسماعيل على صواب؛ إذ قدم هذا القنصل سنة 1701 تقريراً عملياً للسلطات الفرنسية عن كيفية القضاء على القرصنة المغربية، وبالتالي إرغام المولى إسماعيل على الخضوع لرغبات فرنسا وشروطها⁽²²⁾.

لقد اكتشف الأب نولسك في وجه المولى إسماعيل عند أول مشاهدة وكذا في عينيه مدى شراسة هذا الملك وجبروته⁽²³⁾. إن هذا الحقد الدفين، والمبرر تاريخياً هو الذي جعل الأب نولسك يحكي مجموعة من الأخبار يغلب عليها الطابع الأسطوري. فقد تعرض، مثلاً، للنزاع الذي كان بين المولى إسماعيل وعلماء فاس، وارجع سببه إلى محاولة المولى إسماعيل استعباد أهل مدينة فاس على غرار ما فعله بسكان المدن الأخرى، فأخذ بناتهم والحقهن بحريمه في قصره بمكناس. وأمام هذا الوضع، يقول نولسك، انتخبت المدينة أول فقيه عندها وأرسلته صحبة أربعة طلاب إلى مكناس قصد إقناع الملك بالرجوع عن قراره، وترك فاس تتمتع بامتيازاتها التقليدية. وعند اجتماع الملك مع هؤلاء، أخذ الطالب الأول — يقصد عبد السلام جسوس — بعد أن تبين له عدم رجوع الملك عن قراره، يكشف عن عيوب هذا الأخير وسوء معاملاته. واستمر الأب نولسك يحكي مجموعة من الترهات في الموضوع، وانتهى إلى الكلام عن عودة هؤلاء الطلبة إلى فاس، وإرسال المولى إسماعيل في أثرهم بعض قواده صحبة الأمر بقطع إحدى رجلي الطالب

S.I.H.M. 2^e Série, France, T. II, pp. 309-310. (19)

Ibid., T. III : pp. 300-301, 313-314, 357-358, 448-449 ; T.II : p. 113 (20)

Ibid., T. IV : pp. 604-611. (21)

Ibid., pp. 229-240. (22)

Nolasque, *op. cit.*, pp. 650-651. (23)

الأول، ودفع غرامة كبيرة. وهو ما تم بالفعل، يقول نولسك ؛ وختم روايته باستدعاء المولى إسماعيل لجميع الطلبة، وإفنائهم بصواب رأيه، وإقرارهم بأن جميع رعايا مملكته عبيد له (24). وهكذا شوه الأب نولسك المضمون التاريخي للنزاع الذي استمر مدة طويلة بين علماء فاس والمولى إسماعيل، والذي تناقلته لحسن الحظ مصادرنا (25)، وهو النزاع الذي دار حول قضية تمليك حراطين فاس (26).

لقد تحكم في مؤلفي المصادر الأجنبية منطق الإثارة وليس الإخبار. ولهذا نجدهم لا يهتمون إلا لماماً بالتنظيم العسكري الإسماعيلي، وتأني معلوماتهم عرضية وسطحية، رغم أننا نجد من بين هؤلاء من قضى أكثر من عشرين سنة في الخدمة العسكرية بالمغرب (27)، في حين توفر هذه المصادر معلومات غزيرة عن الأحداث العسكرية والسياسية. لقد كانت الباحثة مكالي مورسي أكثر واقعية عندما اعتبرت المعلومات الواردة بالمصادر الأوروبية حول تاريخ المغرب في عصر المولى إسماعيل، خاصة فيما يرتبط بشخص السلطان، معلومات مفيدة أكثر في تاريخ الأفكار (Histoire des idées)، إذ رأت فيها فصلا من فصول تاريخ الفكر الأوروبي (28).

من البديهي أن تغري هذه المصادرُ الحافلة بالعجائب والغرائب الباحثَ الأجنبي، وتلقي به إلى مغامرة الكتابة في تاريخ المغرب السياسي والعسكري في العهد العلوي الأول. وكان دور الارشيفات البريطانية أساسيا في تحديد هوية هؤلاء

(24) Ibid., pp. 714-715.

(25) انظر :

— محمد بن الطيب القادري، نشر المثاني، م.س.، ج. III، ص.ص. 206-209.

— الضعيف، م.س.، ج. I، ص.ص. 187-195.

وكذلك الوثائق التي نشرها محمد الفاسي بمجلة هسبريس سنة 1962. (عدد خاص)، وكذلك بمجلة تطوان. وهي مجموعة من الرسائل تبادلها المولى إسماعيل مع سيدي محمد بن عبد القادر الفاسي في موضوع جيش البخاري والحراطين.

(26) — انظر التفاصيل في مقال كتب في الموضوع : عزيز عبد الله مطران، «علماء فاس والمولى إسماعيل ومشكلة حراطين فاس»، ترجمه عن الإنجليزية عبد الله بن الأمين ومحمد المهناوي، مجلة أبحاث، عدد 26، ربيع 1991، ص.ص. 71-83.

(27) Thomas Pellow, op. cit.

(28) Magali Morsy, «Muley Isma'il ou l'instauration de l'état 'Alawite'», in *les Africains*, T. IV, ed. Jaguar, Paris, 1990, pp. 131-163.

الأجانب. (29) فقد كتبت مكاللي مورسي في سنة 1973، أن هناك عدة أعمال في طريقها نحو الإنجاز تعتمد المصادر والوثائق البريطانية في كتابة تاريخ المغرب، وذكرت فريقا يتكون من باتريسيا مرسر (Patricia A. Mercer) من جامعة لندن، وألن ريشارد مايرز (Allan R. Meyers) من جامعة كورنل، وجيروم واينر (Jerome Bookin-Weiner) من جامعة كولومبيا، وأخيرا مكاللي مورسي نفسها من جامعة السوربون⁽³⁰⁾. وبالفعل، فقد كانت لهذا الفريق مساهمة فعالة في كتابة تاريخ المغرب، وخاصة في الميدان العسكري. ففي الوقت الذي اهتم جيروم واينر بمغرب ما بين موت أحمد المنصور الذهبي وتولي المولى إسماعيل الحكم (1603-1672)⁽³¹⁾، انصب اهتمام الباقي على التاريخ العسكري والسياسي للمغرب في العهد العلوي الأول⁽³²⁾، ثم التحق بهم أمريكي آخر وكمل أعمالهم⁽³³⁾، دون أن تغفل المساهمة القيمة للإسباني دياز رامون فيما يخص

(29) ازدادت أهمية الأرشيف البريطاني في تاريخ المغرب، إثر وجود إنجلترا بطنجة (1661-1684)، وامتلاكها لصخرة جبل طارق منذ 1704. وبفعل ارتباط حامية هذه الصخرة المباشر مع المغرب، فقد أصبح للأرشيف البريطاني، وجبل طارق على الأخص، أهمية كبرى في تاريخ المغرب الحديث. حول تطور العلاقات المغربية الانجليزية، انظر : — ب. ج. روجرز، *تاريخ العلاقات الانجليزية المغربية حتى عام 1900*، ترجمة يونان لبيب رزق، دار الثقافة، البيضاء، 1981.

(30) — Magali Morsy et Allan Rukord Myers, «L'apport des Archives Britaniques à la connaissance de l'histoire du Maroc aux XVII^e-XVIII^e siècles», *Hespéris-Tamuda*, T. XIV, Année 1973, pp. 177-193.

(31) — Jerome Bruce, Bookin Weiner, *Fitna, Corsairs, and Diplomacy : Morocco and the Maritime States of Western Europe 1603-1672*, Ph. D. Columbia University, 1976, Ann Arbor, University Microfilms International, 1985.

(32) — Patricia Ann, Mercer, *Political and Military Developments within Morocco During the Early 'Alawi Period (1659-1727)*. University of London, Ph. D, 1974, Boston British Library, 1975. Microfilm.

— Allan Richard, Meyers, *The «Abid-L-Buḥari : Slave soldiers and Statecraft in Morocco 1672-1790*, Cornell University Ph. D., 1974., Anthropology, Xerox University microfilms international, Ann Arbor. Michigan, U.S.A., 1985.

— Magali Morsy, *Histoire de la longue captivité et des aventures de Thomas Pellow en Barbarie du Sud*, Thèse de doctorat d'Etat soutenue à l'Université de Nice en 1976.

(33) — Wilfrid John, Rollman, *The, «New order» in Pré-colonial Muslim society, Military Reform in Morocco 1844-1904*. The university of Michigan, Ph. D., 1983, University Microfilms international., Ann arbor, Michigan U.S.A., 1985 (2 Vol).

مغرب سيدي محمد بن عبد الله⁽³⁴⁾. فهل استطاع هؤلاء تجاوز إشكالية المصدر؟ وما هو المستوى الذي وصله تقدم البحث من خلال أعمالهم في تاريخ التنظيم العسكري الإسماعيلي؟

في سنة 1967، ظهرت أول دراسة جدية عن تاريخ التنظيم العسكري الإسماعيلي، حيث كتبت مگالي مورسي مقالا في موضوع «مولاي إسماعيل والجيش المحترف»⁽³⁵⁾، تضمنته أهم المعلومات المتوفرة عن الفرق العسكرية التي شكلت جيش المولى إسماعيل، وركزت حديثها على وظائف هذا الجيش إداريا وعسكريا، في حين اقتصر في تنظيمه على المعلومات المعروفة، حيث كان الناصري المصدر الرئيسي للباحثة عند كلامها عن تنظيم جيش الوداية⁽³⁶⁾، وأضافت إليه الزياني فيما يخص تربية جيش البخاري⁽³⁷⁾. أما المادة العلمية الخاصة بالعلوج، فقد استقتها مگالي مورسي من المصادر الأوروبية، ومن رواية توماس بيلو أساسا⁽³⁸⁾. وعليه، فقد اكتفت هذه المحاولة التأسيسية بإثارة بعض الأسئلة الكبرى المرتبطة بالتنظيم العسكري الإسماعيلي، وهو ما جعلنا نعلق آمالا على الأبحاث اللاحقة، وخاصة على أطروحة باتريسيا مرسر وكذا آلن مايرز. فقد ناقشت الباحثة الأولى أطروحة (PH.D.) بجامعة لندن سنة 1974، في موضوع: «التطورات السياسية والعسكرية بالمغرب خلال العهد العلوي الأول»⁽³⁹⁾، وكان المصدر الأجنبي أساس هذه الدراسة. فضمن 73 عنوانا كمجموع لمصادرها، كان حضور 16 مصدرا مغربيا فقط، أهمها الترجمان المعرب و البستان الظريف و الجيش العرمرم وأخيرا الاستقصا، وهو ما وجه الباحثة مورسي نحو الاكتفاء بسرد الأخبار العسكرية والسياسية التي تعج بها المصادر الأوروبية ووثائق أرشيفاتها. وعندما

— Lourido Diaz, Ramon, *Marruecos en la segunda mitad del Siglo XVIII : vida interna, política, social y religiosa durante el sultanato de Sidi Muhammad B. Abd Allah 1757-1790*, Instituto Hispano-Arabe de cultura, Madrid, 1978. (34)

— Magali Morsy, «Moulay Ismail et l'armée de métier», *Revue d'histoire Moderne et contemporaine*, T. XIV, Avril - Juin 1967, pp. 97-122. (35)

Ibid, p. 101. (36)

Ibid, pp. 103-104. (37)

Ibid, pp. 104-107. (38)

Mercer, *op. cit.* (39)

حاولت البحث عن تنظيم جيش البخاري، بقيت حبيسة مناقشة المعلومات الواردة عند الزياتي في الترجمان والبستان، وتحررت من ذلك بسرعة، فانتهد إلى إبراز دور العبيد في تمهيد البلاد، وعلاقتهم بالمؤسس، وتوزيعهم بالقصبات⁽⁴⁰⁾. وفي نفس السنة — 1974 — دافع الأستاذ مايرز بجامعة كورنل عن أطروحة — تخصص أنثروبولوجيا — في موضوع عبيد البخاري من التأسيس إلى سنة 1790⁽⁴¹⁾. ونظرا لدقة موضوع مايرز بالمقارنة مع مورسي، فقد انكشفت به إشكالية المصدر بصورة أوضح، حيث بادر مايرز منذ الفصل الثاني من رسالته إلى الحديث عن كيفية تنظيم العبيد؛ إلا أنه بقي متوقفا عند التقسيمات التي روجتها مصادرها في الموضوع، وهي في غالبيتها مغلوطة كما سنبين لاحقا، فتكلم عن الرحا وقائد الرحا والمائة وقائد المائة... إلخ⁽⁴²⁾. وأمام النقص المصدري، فضل مايرز الانتقال مباشرة لبسط الكلام عن علاقات المولى إسماعيل بالعبيد نقلا عن المصادر الأوروبية، وعن تربيته كما يحكي الزياتي والناصرى⁽⁴³⁾، في حين خصّص الفصول المتبقية من رسالته للحديث عن الأدوار السياسية والإدارية والعسكرية لجيش البخاري في تاريخ المغرب، وما ترتب عن ذلك من مشاكل منذ سنة 1680 إلى سنة 1790⁽⁴⁴⁾. وإذا كانت أطروحة الأستاذ مايرز لم تأت بجديد، فإننا لا نخالف رأي مكالي مورسي في اعتبارها إحدى المحاولات الجادة في ملازمة المشاكل المرتبطة بتاريخ الجيش النظامي المحترف بالمغرب⁽⁴⁵⁾.

(40) *Ibid*, «The Black Army and - Tamhid», pp. 279-309

(41) Meyers, *op. cit.*

(42) *Ibid*, pp. 101-105.

(43) *Ibid*, pp. 106-113.

(44) *Ibid*, pp. 116-283.

(45) Magali Morsy, «Réflexions sur le discours historique à travers l'examen d'un document sur le Maroc au milieu du XVIII^e siècle», *Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée*, N° 20, 2ème semestre 1975, pp. 67-103, p. 98, Note n° 20.

وإن كان هذا المقال خصص لبحث المشاكل التي تطرح في تفسير أحداث ما بعد المولى إسماعيل، وبالتالي كان رأي مكالي في بحث مايرز من هذا المنطلق، وليس من منطلقنا المرتبط بإسهامه في التعريف بالتنظيم العسكري في عصر المولى إسماعيل. وربما كان هذا هو السبب الذي جعلها لا تشير إلى بحث الإنجليزية مورسي، وإن كنا لا نعتقد ذلك، وخصوصا إننا =

إن تاريخ التنظيم العسكري في عصر المولى إسماعيل لم يكتب بعد، وهو ما تأكد بعد عام واحد من إنجاز الباحثين السالفي الذكر. ففي سنة 1975. نشرت الباحثة شانتال دولافيريون (Ch. de la Veronne) مجموعة من الوثائق عن تاريخ المغرب من سنة 1726⁽⁴⁶⁾ إلى سنة 1728 ؛ وكانت ضمن هذه المجموعة مراسلة (Une Relation) من سلا تخبر بوقوع حركة تمرد عسكرية ضد مولاي أحمد الذهبي بمكناس من 18 إلى 21 من شهر مارس عام 1728، وانتهائها بإعلان مولاي عبد المالك سلطانا جديدا⁽⁴⁷⁾. فأحدثت هذه المراسلة انقلابا مشابها لمضمونها في ميدان البحث التاريخي المهم بالتنظيم العسكري للإسماعيلي، حيث أكدت هذه الوثيقة على ضرورة إعادة النظر في كل ما قيل سابقا في الموضوع، وذلك بعد أن كشفت عن تنظيم خاص ضمن جيش البخاري، تدعى العناصر المشكلة له بـ «قوادروسهم». وهم عبارة عن فريق من الضباط السود، كانوا يقيمون بمكناس، ليست لهم أية مسؤولية محددة كما يدل على ذلك اسمهم، وإنما هم دائما على استعداد لتنفيذ أوامر السلطان، كيفما كانت صيغة هذه الأوامر. وإذا كانت شانتال دولافيريون لم تدر اهتماما خاصا لهذه المراسلة⁽⁴⁸⁾، فقد اهتز الأستاذ مايرز عند اطلاعه عليها، وبادر لتدوين ملاحظاته في موضوعها⁽⁴⁹⁾، ورأى في هذه الوثيقة مساهمة جديدة في التعريف بالتنظيم العسكري العلوي في السنوات الأخيرة من حكم المولى إسماعيل، وعاد مايرز ليتحسس حضور «قوادروسهم» عند كل من «ويندوز» و«توماس بيلو» و«دوليون» السالفي الذكر.

= سنجد الأمريكي مايرز في سنة 1977 يتغافلها هو الآخر عندما أحال على دراسته وعلى مقال مكالي دون الإشارة إلى مورسي ! وذلك أثناء مناقشته للبحوث والاجتهادات التي تمت في تاريخ الجيش الإسماعيلي في مقال حول «قوادروسهم» سنتعرض له لاحقا.

(46) — La Veronne, Chantal, De «documents inédits sur l'histoire du Maroc» 1726-1728, Sources Françaises, T.I, Geuthner, Paris, 1975.

(47) — *Ibid*, «Relation du mouvement insurrectionnel qui amena Moulay Abd El-Malek sur le trône du Maroc. Salé le 24 Avril 1728», in D.I.H.M. Sources Françaises, pp. 43-48.

(48) اعتقدت شانتال دولافيريون أن «قائد راسو» الواردة في المراسلة تحريف لقائد الرحا ولهذا اعتبرت المراسلة تتكلم عن قائد الرحا. انظر :

documents inédits, op. cit, p. 44, Note n° 5.

(49) — Allan Richard, Meyers, Note sur les «QA'ID Rasu». Vol. XVII. Hespéris-Tamuda, 1976-77, Fasc unique, pp. 85-96.

وبعد أن برهن على أن «قوادروسهم» هو تنظيم خاص ضمن جيش البخاري، اعترف بظهور معلومات عن هذا التنظيم تخالف الاعتقاد الذي كان سائدا، والذي دافع عنه بنفسه في أطروحته. ذلك أن جيش البخاري لم يكن خاضعا لتربية وتنظيم موحد، كما أنه كان متعدد القيادات، عكس ما كنا نعتقد أنه خطأ يقول مايرز⁽⁵⁰⁾؛ ثم أضاف أن هذه الوثيقة تدفع إلى ضرورة البحث من جديد عن هذه الفرقة ضمن التنظيم العسكري الإسماعيلي، ولن يتأتى ذلك إلا باستعمال مصادر جديدة وانتهى إلى اعتبار هذه الخطوة أساسية، ولو أنها صغيرة، في طريق فهم التنظيم العسكري الإسماعيلي بشكل عام، وحدود مساهمة هذا التنظيم في مشاكل مغرب ما بعد المولى إسماعيل⁽⁵¹⁾. وإذا كانت هذه الضجة التي أحدثها مايرز تبين أهمية المراسلة التي نشرتها دولافيريون في موضوع تنظيم جيش البخاري، فإنها تعكس بالمقابل عدم تمكن الباحثين الأجانب من استغلال حتى المعلومات القليلة التي تقدمها المصادر المغربية التقليدية، وذلك بفعل اعتمادهم على النسخ المترجمة إلى اللغة الفرنسية. فلو كان بإمكان الأستاذ مايرز الاطلاع على كتاب الاستقصا في لغته الأصلية، لما وجدناه يتلقف تلك المراسلة بهذه الاحتفالية. فقد أشار صاحب الاستقصا بوضوح إلى فرقة «قوادروسهم»، عندما قدم جردا نهائيا عن جيش البخاري في أواخر عصر المولى إسماعيل، فقال: «وكان بتانوت ووجه عروس، منهم خمسة آلاف يدعون قواد رؤوسهم كلهم أصحاب خيل...»⁽⁵²⁾. فماذا قرأ مايرز في النص الفرنسي للاستقصا؟ لقد قرأ الآتي:

«à Tanout et à Oujeh Arous, il y avaient 5.000 Abids qui avaient tous le titre de qaid et étaient montés...»⁽⁵³⁾.

وهكذا خدع أوجين فيمي (Eugène Fumey) الأستاذ مايرز ولم ينقل بأمانة كلام الناصري في الموضوع، فأغفل لفظة «رؤوسهم»، ربما لأنه اعتقد بعدم أهميتها،

(50) Ibid, p. 92, Note n° 23.

(51) Ibid, pp. 95-96.

(52) الناصري، الاستقصا، ج. 7، ص. 191.

(53) E-NACIRI AS-SLAOUI, *Kitab el-Istiqsa dans Archives Marocaines*, T. IX (trad. Eugène Fumey, Paris. 1906, p. 263).

أو أنه وجد صعوبة في إيجاد المقابل الفرنسي لها، أو لم يفهمها نهائيا⁽⁵⁴⁾. وهي مشكلة أخرى تنضاف إلى المشاكل التي يعرفها الباحث الأجنبي في دراسة تاريخ المغرب⁽⁵⁵⁾. وكان الاهتمام بفرقة «قواد رؤوسهم» أهم ما أضافته الباحثة «مكالي مورسي» في أطروحتها عن تاريخ أسر ومغامرات توماس بيلو بالمغرب الجنوبي، والتي قدمتها بجامعة نيس عام 1976 ونشرت ملخصا لها سنة 1983 صحة النص الفرنسي لرواية بيلو⁽⁵⁶⁾. في حين تطورت وجهات نظر الباحثة، انطلاقا من بيلو وغيره، فيما يخص علاقة الخزن بالرعية، ودور الجيش المحترف في تحديد معالم هذه العلاقة. وهي ميزة تنفرد بها مكالي مورسي بالمقارنة مع زملائها الانكلوفونيين⁽⁵⁷⁾.

إن غياب مصادر مغربية مختصة في الجانب العسكري فسح الطريق أمام اجتهادات يغيب فيها الزمن وتضطرب بها المصطلحات. وحتى عندما ظهرت كتب مغربية تتخذ من التنظيم العسكري موضوعا رئيسيا لها، كما كان الشأن خلال القرن التاسع عشر، فقد توقف أصحابها عند التبشير بأهمية التنظيم العسكري، والدعوة إلى إصلاح الجيش المغربي، وإعداده لخوض حرب النظام، دون أن يلتفت هؤلاء ولو قليلا إلى التعريف بما هو قائم⁽⁵⁸⁾. لقد وضعت مصادرنا التقليدية المتأخرة

(54) من المعلوم أن أوجين لم يكن مؤرخا، بل كان يعمل موظفا بالمفوضية بمدينة طنجة؛ كما عمل إلى جانب السلطات المخزنية المغربية.

(55) لقد اهتم مايرز في مقاله عن «قواد رؤوسهم» بمحاولة وضع رقم تقريبي لهذا الفريق. منطلقا من الرقم الذي تقدمه المراسلة السالفة الذكر والمحدد في 1800 قائد راسو. ورأى أن هذا العدد يفوق ما كان عليه سنة 1921 بمقدار مرتين على الأقل، في حين نجد الناصري يتكلم عن 5000 قائد راسو في أواخر عصر المولى إسماعيل، وهو ما يتناقض كليا مع اجتهادات مايرز.

— Mayers, «Note sur les Qa'id Rasu», op. cit., p. 93.

(56) Magali Morsy, «Introduction» in *la relation*, op. cit. pp. 35-36.

(57) مع العلم أن مكالي هي الأخرى ألفت باللغة الإنجليزية عن تاريخ شمال إفريقيا من حوض النيل إلى الأطلسيكي. انظر :

— Magali Morsy, *North Africa, 1800-1900 a Survey from the Nille Valley to the Atlantic*, Longman, London, 1983.

=

(58) انظر :

تنظيما نموذجيا للجيش العلوي، تعود إليه كلما دعت الضرورة، مستغلة في ذلك استمرارية الفرق العسكرية التي أنشأها المولى إسماعيل إلى نهاية القرن التاسع عشر⁽⁵⁹⁾. وقد انعكس هذا التعميم على الدراسات التي انجزت في الموضوع. فتقسيم الجيش النظامي إلى فرق (الرحا المائة، الربايع...) متدرجة في العدد (الرحا = ألف جندي، المائة = 100 جندي، الربايع = 25 جندي) وفي أهمية قوادها (قائد الرحا، ثم قائد المائة، ثم الانباشي، وأخيرا المخازني) موجود عند «مايرز» وكذلك «رولمان»⁽⁶⁰⁾، مع العلم أن مايرز يقر بنفسه بانعدام أي دليل مادي على استعمال مصطلح قائد الرحا بمغرب القرن السابع عشر والثامن عشر⁽⁶¹⁾. أين التطور إذن؟ أين تاريخ ظهور مصطلحات هذا التنظيم العسكري العلوي؟ ماهي حدود مساهمة المولى إسماعيل في هذا التنظيم؟

إن الصعوبات التي تعترض البحث التاريخي في فهم ما وقع مباشرة بعد المولى إسماعيل، تكذب كل من زعم أنه فهم ما وقع زمن المولى إسماعيل. لقد كان جيش البخاري أكبر متضرر من غياب هذا السلطان المؤسس، في حين وجد فيه الجميع قميص عثمان، فوقع الإجماع على اعتبار هذا الجيش المسؤول الأول والأخير عن مشاكل مغرب ما بعد المولى إسماعيل. أعتقد أننا أمام محاكمة حقيقية لسياسة المولى إسماعيل في شخص العبيد، وهو ما التقطته مصادرها التقليدية. فعداء هذه الأخيرة لجيش البخاري لا ينبع فقط من تدخلاته في الشؤون السياسية بعد موت المؤسس، وإنما يعود بالدرجة الأولى إلى الكراهية الكبرى التي كان يكنها السكان لعناصر

= — محمد المنوني : *مظاهر يقظة المغرب الحديث*، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985، ط. الثانية، ج. I، ص.ص. 24-25، 76-86، 335-341، 342-347.

— Abdallah Saar, «l'art de la guerre» à travers les écrits d'auteurs Marocains au cours du XIX^e siècle», in *le Maroc de l'avènement de Moulay Abdelaziz à 1912*, Université d'été, Mohammédia, 1987. pp. 85-97.

(59) لقد لخص عبد الرحمان بن زيدان ما جاء في المصادر عن هذا التنظيم في كتابه، *العز والصلوة في معالم نظم الدولة*، ج II المطبعة الملكية، الرباط 1962، ص.ص. 190-203.

(60) مع العلم أن مايرز اشتغل بمغرب القرن 17-18، بينما اهتم رولمان بدراسة التطور العسكري والإصلاحات التي أدخلت عليه بمغرب النصف الثاني من القرن التاسع. انظر :

— Meyers, *The Abid. L. Buhaz, op. cit.*, p. 101.

— Rollman, *op. cit.*, p. 418.

— Meyers, *Note sur les qaid Rasu, op. cit.*, pp. 89-90.

(61)

هذا الجيش في حياة المولى إسماعيل. وعلى غرار ما قالته مكّالي مورسي في حق المكتوب الأوروبي عن المولى إسماعيل، فإننا نرى أن ما تقدمه مصادرنا التاريخية التقليدية في موضوع جيش البخاري مفيد أكثر في بحث «تاريخ الأفكار» بالمغرب. ولهذا نعتقد أن أهم ما يتوفر من مادة علمية عن التنظيم العسكري للإسماعلي لا يوجد بالمصادر المغربية التقليدية وكذا الأوروبية التي اعتمدتها الأبحاث السالفة الذكر، وإنما هو مشتت بين صفحات مجموعة كبيرة من المصادر والوثائق، تقتضي بحثاً طويلاً يغطي المكتوب بمغرب القرون : 17-18-19، بغض النظر عن الأغراض التي كتب فيها (فتاوى، تراجم، شعر، رحلات، تواريخ، رسائل، كنانيش، فهارس، إلخ...) (62). هذا إضافة إلى المخلفات الأثرية التي نعتبرها أساسية في الموضوع.

(62) لقد كانت باتريسيا مرسر على صواب عندما لاحظت في ثورات أبناء المولى إسماعيل دليلاً على عدم خضوع جيش البخاري لسلطة موحدة، وعلامة على هشاشة إخلاص عناصر هذا الجيش لشخص المؤسس (انظر : Mercer, *op. cit.* p. 293). وكان بإمكان الباحثة أن تطور وجهة نظرها هاته لو أنها اطلعت على كتاب «نفحات الشباب» الذي نشره مشكوراً الأستاذ المختار السوسي ضمن معسوله (انظر : المعسول، ج 18، مطبعة النجاح البيضاء، 1961، ص.ص. 286-328)؛ إذ يقدم هذا النص الأدبي الطريف معلومات جد قيمة، بل نادرة، عن جيش البخاري بنسوس لحظة استعداد سيدي محمد العالم للثورة على والده، ويكشف عن السلطة الكبيرة التي كانت لجيش البخاري في أواخر حياة مولاي إسماعيل، ويعري عن العداء الذي كان يكنه المغاربة بمختلف شرائحهم لهذا الجهاز الرادع، حتى أن كاتبه الروداني المجهول طلب من قراء كبراسته التستر والتكتم. وربما كان هذا هو السبب الذي منع كاتبه من وضع اسمه والإفصاح عنه بكراسته. كما اعتقد أن الاطلاع على الرسالة التي بعث بها القاضي العربي بردلة إلى المولى إسماعيل في شأن الحراطين، يكون كافياً للباحثة مكّالي مورسي لتطور فكرتها عن مضمون الصراع بين المولى إسماعيل وعلماء فاس، وتكون أوضح وأعمق من تلك التي قدمتها في الموضوع، بكل أعمالها السالفة الذكر. ونفس الملاحظة تسري على مايرز. انظر :

— عيسى بن علي الحسني العلمي، كتاب النوازل، ج. III، نشر وزارة الأوقاف، الرباط، 1989، ص.ص. 278-285 ؛

— Magali Morsy, «M. Ismail ou l'instauration de l'Etat Alawite», *Les Africains*, T. IV., Ed. J.A., 1977 (Nouvelle édition du Jagner 1990 (pp. 129-163), p. 55.

— La relation de Thomas, *op. cit.*, pp. 44-54 ;

— Mayers Allan, *The Abid. op. cit.*, pp. 153-156.